قصص الرحالة

— ٥ —

« أورلانا يكشف الامزون »

اسمعتم صباحاً يا أبنائي ! ! أنا أورلانا (Orellana) ، وقد ولدت باسبانيا ، ولكن قضيت معظم حياتي بامريكا الجنوبية ! وفي سنة ١٥٣٩ اشتركت في رحلة لكشف البلاد الواقعة شرق جبال الأندة (Andes). وقد غادرنا كيتو (Quito) (على خط الاستواء ، غرب جبال الأندة) يوم عيد الميلاد . وبعد ستة أسابيع . بدأنا نعبر الجبال . وكانت الثلوج تتساقط بكثرة هائلة ، من دون انقطاع ؛ والبرد شديداً جداً ، حتى لقد هلك كثير من الهنود الذين كانوا معنا !

اورلانا

وبعد جهد عنيف ، اجتزنا الجبال إلى الجانب الآخر منها ، فوصلنا إلى وادي نهر نابو (Napo) حيث ظلت الأمطار تسقط مدراراً مدة شهرين كاملين !! واعترضنا في طريقنا غابة كثيفة جداً ، اضطررنا لاستعمال الفئوس في كثير من أنحائها ، لنفتح فيها طريقاً . وفي مكان آخر منها ، صادفتنا مستنقعات كثيرة ، لم نستطع عبورها على الأقدام ، فبنينا سفينة ، وحملنا إليها من لم يقو على السير برا . وانقسمنا بذلك فريقين : فريق على ظهر السفينة ، وفريق يسير برا على جانبي النهر ؛ وكان على الفريق الأول . أن يسير بالسفينة ببطء على الرغم من التيار الجارف الذي كان يدفعها ؛ لكي لا يبتعد عن الفريق الآخر ، الذي كان عليه أن يشق طريقه وسط أحراش متشابكة ، وأدغال كثيفة . وفي المساء — كان الفريقان يقضيان الليل سوياً .

وبعد شهرين كاملين ، علمنا أننا بالقرب منا بلاداً غنية بالذهب والمحاصيل الزراعية ، وبكل ما نحتاج إليه من غذاء ، فاخترت ربانا للسفينة ، وأمرت أن أسير إلى تلك البلاد الغنية لأحمل منها كل ما أستطيع حمله ، ثم أعود إلى بقية رفاقي على الفور ؛ لأن الحالة كانت قد

وَصَلَتْ إِلَى دَرَجَةٍ سَيِّئَةٍ ، فَقَدْ كَانَ يَمُوتُ مِنَّا النِّيَارِ ، كَانَ يَلْزَمُنَا شَهْرَانِ عَلَى الأَقَلِّ . وَكَانَ جُوعًا اثْنَانِ كُلَّ يَوْمٍ . الْبَقَاءُ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ محالا أَيْضًا ! لِأَنَّنَا لَوْ بَقِينَا

الفيلة الامزونيات يهاجمن رجال أورلا !!

وَفِي الْيَوْمِ الثَّانِي مِنْ رِحْلَتِنَا ، اصْطَدَمَتِ السَّفِينَةُ بِشَجَرَةٍ طَافِيَةٍ عَلَى الْمَاءِ، فَتَصَدَّعَ جَانِبُهَا وَعَايَنَّا الأَمَرَّيْنِ فِي إِصْلَاحِهَا. وَفِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ وَصَلْنَا إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي أَنْبَأَنَا أَنَّ بِهِ ضَالَّتَنَا ! !

لَهَلَكْنَا مِنَ الْجُوعِ حَتْمًا . فَكَانَ لَا مَنَاصَ مِنْ أَنْ نُوَاصِلَ السَّيْرَ عَلَى النَّهْرِ . فَيَحْمِلُنَا الْمَاءُ إِلَى حَيْثُ يَشَاءُ ، وَنَشَاءُ الْمَقَادِيرُ . وَمَا كُنَّا لِنَعْلَمَ إِلَى أَيْنَ يَنْتَهِي بِنَا النَّهْرُ ، وَلَكِنْ

وَلَكِنَّا لَمْ نَجِدْ شَيْئًا يُؤْكَلُ عَلَى الْإِطْلَاقِ !! وَخَابَ كُنَّا نَعْلَمُ عِلْمَ الْيَقِينِ أَنَّ جَمِيعَ الْأَنْهَارِ ، تَنْتَهِي عَادَةً أَمَلُنَا . وَاشْتَدَّتْ حَاجَتُنَا إِلَى الطَّعَامِ !! فَطَبَخْنَا أَحْذِيَتَنَا وَأَحْزِمَتَنَا ، مَعَ قَلِيلٍ مِنَ الْأَعْشَابِ ، وَأَكَلْنَاهَا !!

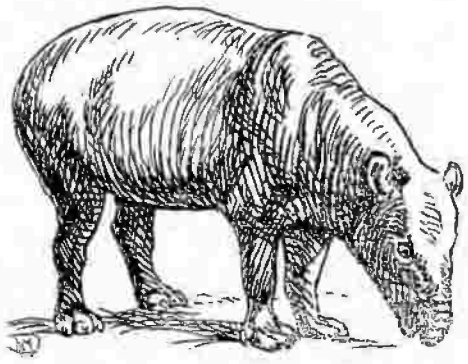

التابير

وَكَانَ الرُّجُوعُ محالا بِالطَّبْعِ ، لِأَنَّنَا كُنَّا قَدْ قَطَعْنَا مِائَتَيْنِ وَأَرْبَعِينَ مِيلًا ، وَلِكَيْ نَعُودَ ضِدَّ لِنَسْتَطِيعَ السَّفَرَ بِهَا فِي الْبَحْرِ ، إِذَا مَا

إِلَى الْبِحَارِ ! فَكَانَ وُصُولُنَا إِلَى الْبَحْرِ يَوْمًا مَا أَمْرًا مَحْتُومًا ، مَا لَمْ نَهْلِكْ قَبْلَ ذَلِكَ .

مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ ، صَمَّمْتُ عَلَى أَنْ أُشَيِّدَ سَفِينَةً أُخْرَى كَبِيرَةً ،

وَصَلْنَا إِلَيْهِ !! لِأَن السَّفِينَةَ الَّتِي كَانَتْ مَعَنَا لَمْ تَكُنْ لِتُجْدِيَ نَفْعًا عَلَى سَطْحِ الْبَحْرِ !! وَحَصَلْنَا عَلَى الْخَشَبِ اللازِمِ لِلسَّفِينَةِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ، وَوَاصَلْنَا الْعَمَلَ مُدَّةَ خَمْسَةِ أَسَابِيعَ ، صَنَعْنَا فِي أَثْنَائِهَا مَا يَزِيدُ عَلَى أَلْفَيْ مِسْمَارٍ ، وَتَمَّ صُنْعُ السَّفِينَةِ الْجَدِيدَةِ ، بَعْدَ أَن حَشَوْنَا الْفَرَاغَ الَّذِي بَيْنَ الْأَلْوَاحِ ، بِالْقُطْنِ ، وَطَلَيْنَاهَا بِنَوْعٍ مِنَ الْقَارِ حَصَلْنَا عَلَيْهِ مِنْ بَعْضِ الْهُنُودِ .

وَكَانَتْ عَقَبَتَنَا الْوَحِيدَةَ قِلَّةُ الطَّعَامِ ؛ وَقَدْ عَانَيْنَا بِسَبَبِ ذَلِكَ أَهْوَالًا شَدِيدَةً . لَكِنْ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ كُلِّ هَذَا ، وَاصَلْنَا السَّيْرَ عَلَى النَّهْرِ مِئَاتٍ مِنَ الْأَمْيَالِ مُخْتَرِقِينَ غَابَاتٍ كَثِيفَةً لِلْغَايَةِ ، لَا سُكَّانَ بِهَا . وَقَدْ كَانَ يُسْعِدُنَا الْحَظُّ أَحْيَانًا ، فَنَصْطَادُ سَمَكَةً أَوْ سَمَكَتَيْنِ صَغِيرَتَيْنِ ؛ وَذَاتَ مَرَّةٍ قَتَلْنَا « تَابِيرًا » (Tapir) ، وَهُوَ حَيَوَانٌ فِي حَجْمِ الْبَغْلِ ، كَانَ قَدْ جَاءَ إِلَى شَاطِئِ النَّهْرِ لِيَشْرَبَ !! وَكَانَ ذَلِكَ يَوْمًا مَشْهُودًا !! كِدْنَا نَجُنُّ فِيهِ مِنْ فَرْطِ السُّرُورِ . وَقَدْ كَفَانَا هَذَا الْحَيَوَانُ مُدَّةَ أُسْبُوعٍ .

وَكُنَّا نَلْتَقِي ، فِي بَعْضِ الْأَمَاكِنِ ، بِبَعْضِ الْهُنُودِ . وَكَانَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ يُقَدِّمُ لَنَا « الدِّيَكَةَ الرُّومِيَّةَ » وَالسَّمَكَ وَالذُّرَةَ . وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا مَعَ ذَلِكَ ، فِي أَمَاكِنَ أُخْرَى ، يَتَحَيَّنُونَ الْفُرَصَ لِلْإِيقَاعِ بِنَا ، وَالْوُقُوفِ فِي سَبِيلِنَا . فَكَانُوا يَقْتَفُونَ أَثَرَنَا فِي النَّهْرِ بِسُفُنِهِمُ السَّرِيعَةِ الْخَفِيفَةِ ؛ وَهُمْ يَصِيحُونَ صَيْحَاتٍ مُزْعِجَةً ؛ وَيَقْرَعُونَ الطُّبُولَ قَرْعًا يُصِمُّ الْآذَانَ !! عَلَى أَنَّنَا مَا كُنَّا لِنَعْبَأَ بِتِلْكَ الضَّجَّةِ ، وَمَا كَانَتْ لِتُثْنِيَنَا عَنْ عَزْمِنَا . وَلَكِنَّ السِّهَامَ الَّتِي كَانَتْ تَتَسَاقَطُ وَابِلًا عَلَيْنَا ، هِيَ الَّتِي أَدْخَلَتْ فِي قُلُوبِنَا الْفَزَعَ وَالرُّعْبَ . وَالْأَدْهَى مِنْ ذَلِكَ أَنَّ السِّهَامَ كَانَتْ مَسْمُومَةً ! فَكَانَ الَّذِي يُصَابُ مِنَّا بِسَهْمٍ ، يَقْضِي نَحْبَهُ فِي أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ سَاعَةً ، مَهْمَا كَانَ الْجُرْحُ بَسِيطًا .

وَفِي مَكَانٍ آخَرَ ، هَاجَمَتْنَا جَمَاعَةٌ مِنَ الْهُنُودِ ؛ كَانَ بَيْنَهُمْ عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنَ النِّسَاءِ ، وَكُنَّ يَقُدْنَ حَرَكَةَ الْهُجُومِ !! وَكَانَ إِذَا تَرَدَّدَ أَحَدُ الرِّجَالِ فِي التَّقَدُّمِ نَحْوَنَا ، قَتَلَتْهُ النِّسَاءُ الْقَائِدَاتُ عَلَى الْفَوْرِ .

وَالنِّسَاءُ « الْأَمَزُونِيَّاتُ » طَوِيلَاتُ الْقَامَةِ ، قَوِيَّاتُ الْجِسْمِ ، وَلَوْنُ بَشَرَتِهِنَّ أَسْمَرُ فَاتِحٌ ، وَشُعُورُهُنَّ طَوِيلَةٌ تَلْتَفُّ حَوْلَ رُءُوسِهِنَّ ، وَيَلْبَسْنَ حَوْلَ أَوْسَاطِهِنَّ أَغْطِيَةً مِنَ الْجِلْدِ ، وَكُنَّ يَحْمِلْنَ بِأَيْدِيهِنَّ الْأَقْوَاسَ وَالسِّهَامَ . وَكُنَّ يُحْسِنَ الرَّمَايَةَ ، حَتَّى لَقَدْ قَتَلْنَ ثَمَانِيَةً مِنْ رِجَالِي ، وَلَوْلَا تِلْكَ الْمَخَاطِرُ

الَّتِي كَانَتْ تَتَهَدَّدُنَا مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، لَكَانَتْ رِحْلَتُنَا مُمْتِعَةً لِلْغَايَةِ !

وَأَخِيراً وَصَلْنَا إِلَى نَهْرِ « نجرو » (Negro) أَحَدِ فُرُوعِ الأَمَزُونِ . وَكَانَ مَاؤُهُ أَسْوَدَ كَالْحِبْرِ !! يَتَدَفَّعُ فِي طَرِيقِهِ بِتَيَّارٍ جَارِفٍ ، فَلاَ يَخْتَلِطُ بِمِيَاهِ نَهْرِ الأَمَزُونِ . وَأَمَّا الأَمَزُونُ نَفْسُهُ ، ذَلِكَ النَّهْرُ الْعَظِيمُ ! فَقَدْ كَانَ مِنَ الاتِّسَاعِ فِي هٰذَا الْمَكَانِ بِحَيْثُ إِنَّنَا عِنْدَ مَا وَقَفْنَا عَلَى أَحَدِ شَطَّيْهِ ، لَمْ نَرَ الشَّطَّ الآخَرَ .

وَأَخِيراً اقْتَرَبْنَا مِنْ بَعْضِ الْجُزَائِرِ فِي عَرْضِ النَّهْرِ ، وَلاَحَظْنَا أَثَرَ الْمَدِّ وَالْجَزْرِ فِي الْمَاءِ ؛ فَأَدْرَكْنَا أَنَّنَا بِالْقُرْبِ مِنَ الْبَحْرِ . فَفَرِحْنَا كَثِيراً ، وَلٰكِنْ لِسُوءِ حَظِّنَا ، هَاجَمَنَا جَمَاعَةٌ مِنَ الْهُنُودِ هُجُومًا عَنِيفاً ، فِي وَقْتٍ كُنَّا فِيهِ فِي أَشَدِّ الْحَاجَةِ إِلَى الْمَعُونَةِ لاَ إِلَى الْقِتَالِ !! فَقَدِ انْغَرَسَتْ إِحْدَى السَّفِينَتَيْنِ فِي الرِّمَالِ بِفِعْلِ الْمَدِّ وَالْجَزْرِ ، وَاضْطُرِرْنَا لِتَرْكِهَا ؛ وَاصْطَدَمَتِ السَّفِينَةُ الأُخْرَى بِصَخْرَةٍ كَبِيرَةٍ ، فَتَصَدَّعَتْ وَتَسَرَّبَ إِلَيْهَا الْمَاءُ !!

وَهُنَا أَمَرْتُ نِصْفَ رِجَالِي بِتَدْبِيرِ أَمْرِ السَّفِينَتَيْنِ وَإِصْلاَحِهِمَا ، وَالنِّصْفَ الآخَرَ بِقِتَالِ الْمُهَاجِمِينَ ! وَبَعْدَ مَعْرَكَةٍ دَامَتْ ثَلاَثَ سَاعَاتٍ ، رَجَعَ عَنَّا الْهُنُودُ ، وَعُدْنَا نَحْنُ إِلَى السَّفِينَتَيْنِ ، وَقَضَيْنَا اللَّيْلَةَ نَوْمًا فِي عَرْضِ النَّهْرِ .

وَلَمَّا اقْتَرَبْنَا مِنَ الْبَحْرِ ، أَخَذْنَا نُعِدُّ السفينتين للسَّفَرِ فِيهِمَا ، فَصَنَعْنَا مِنَ الْحَشَائِشِ حِبَالاً ، وَجَعَلْنَا مِنْ أَغْطِيَتِنَا قِلاَعاً ، وَقَضَيْنَا فِي ذٰلِكَ أُسْبُوعَيْنِ ، كَانَ غِذَاءُنَا الْوَحِيدَ فِي أَثْنَائِهِمَا لَمُّ الْحُلُولِ . »

وَغَادَرْنَا الْمَكَانَ فِي رِحْلَتِنَا الْبَحْرِيَّةِ ، وَكُنَّا نَحْصُلُ مِنْ حِينٍ لِآخَرَ ، عَلَى مَاءٍ لِلشُّرْبِ وَذُرَةٍ وَخُضَرٍ ، مِنْ بَعْضِ هُنُودٍ كُنَّا نُصَادِفُهُمْ . وَكَانَ سَفَرُنَا هٰذَا مِنْ دُونِ دَلِيلٍ وَلاَ بوصلةٍ وَلاَ مُصَوَّرٍ جُغْرَافِيٍّ « خَرِيطَةٍ » . لِذٰلِكَ لَمْ نَبْتَعِدْ كَثِيراً عَنِ الشَّاطِئِ . وَبَعْدَ ثَلاَثَةِ أَسَابِيعَ ، وَصَلْنَا إِلَى جَزَائِرِ الْهِنْدِ الْغَرْبِيَّةِ .

وَهٰكَذَا انْتَهَتْ رِحْلَةٌ اسْتَغْرَقَتْ سَنَتَيْنِ تَقْرِيباً قَطَعْنَا فِي أَثْنَائِهَا مَا يَقْرُبُ مِنْ ثَلاَثَةِ آلاَفٍ مِنَ الأَمْيَالِ ، مُخْتَرِقِينَ بِلاَداً ، كُنَّا أَوَّلَ مَنْ وَصَلَ إِلَيْهَا مِنْ أَهْلِ أُورُبَّا .

أَمَّا رِفَاقِي الَّذِينَ تَرَكْتُهُمْ عِنْدَ وَادِي نَهْرِ « نَابُو » لأَعُودَ إِلَيْهِمْ بِالطَّعَامِ ، فَلاَ أَدْرِي مَا حَلَّ بِهِمْ . وَاللهُ يَرْحَمُهُمْ بِقَدْرِ مَا ضَحَّوا وَلاَقَوْا فِي سَبِيلِ الْكَشْفِ . »